٤٧ – باب علامات حُبِّ الله تَعَالَى للعبد والحث عَلَى التخلق بِهَا والسعي في تحصيلها

قَالَ الله تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١]، وَقالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤] .

==========

قَالَ الله تَعَالَى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال (مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عليه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ).

ثمرات متابعة الرسول ﷺ :

الثمرة الأولى: (يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) هذه الثمرة الأولى، وما أعظمها من ثمرة.

قال الشنقيطي: قوله تعالى (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله) الآية.

صرح تعالى: في هذه الآية الكريمة أن اتباع نبيه موجب لمحبته جل وعلا ذلك المتبع.

وذلك يدل على أن طاعة رسول الله ﷺ هي عين طاعته تعالى، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى (مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله) وقال تعالى (وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا).

قال ابن القيم: فجعل سبحانه متابعة رسوله سببا لمحبتهم له وكون العبد محبوبا لله أعلى من كونه محبا لله فليس الشأن أن تحب الله ولكن الشأن أن يحبك الله فالطاعة للمحبوب عنوان محبته .

الثمرة الثانية: (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) هذه الثمرة الثانية.

وَقالَ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ...) أي: من يرجع عن الحق إلى الباطل.

قال في التسهيل (مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ) خطاب على وجه التحذير والوعيد، وفيه إعلام بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه، ثم وقع.

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة أن من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) وقال تعالى (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ)، وقال تعالى (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) أي: بممتنع ولا صعب.

قال السعدي: قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

(**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**) هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه، كما قال تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) وفي صفة النبي ﷺ أنه (الضحوك القتال) فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه.

وبهذا أمر الله نبيه ﷺ فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله (واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ).

وقوله (واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين).

وأمَره بالقسوة على غيرهم بقوله (يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير).

وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِك) الآية.

وليس المراد بكونهم أذلة هو أنهم مهانون، بل المراد المبالغة في وصفهم بالرفق ولين الجانب، فإن من كان ذليلاً عند إنسان فإنه ألبتة لا يظهر شيئاً من التكبر والترفع، بل لا يظهر إلا الرفق واللين فكذا ههنا، فقوله (أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين) أي يظهرون الغلظة والترفع على الكافرين.

(**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) لنصره دينه بأموالهم وأنفسهم، وبأقوالهم وأفعالهم ... والجهاد: بذل الوسع في قتال الكفار.

قال ابن عاشور: وهي من أكبر العلامات الدالّة على صدق الإيمان.

(**وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**) بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته عند عذل العاذلين. وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم .

قال ابن عاشور: وهذا الوصف علامة على صدق إيمانهم حتّى خالط قلوبهم بحيث لا يصرفهم عنه شيء من الإغراء واللوم لأنّ الانصياع للملام آية ضعف اليقين والعزيمة، ولم يزل الإعراض عن ملام اللائمين علامة على الثّقة بالنّفس وأصالة الرأي.

(**ذَلِكَ**) الظاهر أنّ ذلك إشارة إلى ما تقدّم من الأوصاف التي تحلى بها المؤمن.

(**فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**) أي: من اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له.

قال السعدي: ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم منَّ الصفات الجليلة والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير – أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي مَنَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرُهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب

(**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**) أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يَحرمه إياه.

قال ابن تيمية: وَأَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ مَنْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بَدَلَهُ بِمَنْ يُقِيمُ دِينَهُ الْمُبِينَ.

وقال السعدي: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ...) يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن لله عباداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافا، وأقواهم نفوسا، وأحسنهم أخلاقاً .

من فوائد الآية :

١. الإشارة إلى أن من المؤمنين من سيرتد.

٢. التحذير من الردة.

٣. أن الله غني عن العباد.

٤. إثبات المحبة من الله.

٥. فضل التواضع للمؤمنين.

٦. ذم الكبْر على المؤمنين.

٧. الثناء على القوة على الكافرين.

٨. فضيلة الجهاد في سبيل الله.

٩. ينبغي للإنسان ألا تأخذه في الله لومة لائم.

١٠. أن هذه الضفات من فضل الله.

٣٨٦- وعن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (إنَّ الله تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ) رواه البخاري.

معنى «آذنته»: أعلمته بأني محارِب لَهُ. وقوله: «استعاذني» روي بالباءِ وروي بالنون.

==========

الحديث تقدم شرحه بالتفصيل برقم (٩٥) .

فيه أن من أسباب محبة الله كثرة النوافل والتقرب إلى الله بها بعد الفرائض.

قال ابن رجب: فقسم أولياءه المقربين إلى قسمين:

أحدهما: من تقرب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرمات.

والثاني: من تقرب إليه بعد الفرائض بالنوافل.

وهناك أسباب كثيرة تنال بها محبة الله ذكرها ابن القيم في كتابه: مدارج السالكين وهي:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والفهم لمعانيه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها.

السادس: مشاهدة برّهِ وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة.

السابع: – وهو من أعجبها – انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبوب إلى منزلة المحبة .

٣٨٧ – وعنه، عن النَّبيّ ﷺ قَالَ (إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى العَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ الله تَعَالَى يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبريلُ، فَيُنَادِي في أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأَرْضِ) متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ (إِنَّ الله تعالى إذا أَحَبَّ عبدًا دَعَا جِبريلَ، فقال: إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأَحببهُ، فيُحِبُّهُ جبريلُ، ثمَّ يُنادي في السماءِ، فيقول: إِنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأَحبُّوهُ، فيحبُّهُ أهلُ السماءِ، ثُمَّ يُوضعُ لَهُ القَبولُ في الأرضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضْهُ. فَيُبغِضُهُ جِبريلُ، ثُمَّ يُنَادِي في أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ الله يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ في الأَرْضِ) .

==========

(إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا) من عباده.

(نَادَى جِبْرِيلَ) فقال الله في ندائه.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ) وفي لفظ (إني أحب فلاناً فأحبه).

(فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ) عليه السلام .

(فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ) وفي حديث ثوبان (أهل السموات السبع).

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ) ووقع في حديث ثوبان (فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، وتقوله حملة العرش).

(ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْض) زاد الطبرانيّ في حديث ثوبان: "ثم يهبط إلى الأرض، ثم قرأ رسول الله ﷺ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا).

ومعنى (يوضع له القبول في الأرض) أنه يحصل له في قلوب أهل الأرض مودّة، ويُزرع له فيها مهابة، فتحبه القلوب، وترضى عنه النفوس، من غير تودّد منه، ولا تعرّض للأسباب التي تُكتسب لها مودات القلوب، من قرابة، أو صداقة، أو اصطناع، وإنما هو منحة منه تعالى ابتداءً اختصاصًا منه لأوليائه، بكرامة خاصّة، كما يقذف في قلوب أعدائه الرعب، والهيبة؛ إعظامًا له، وإجلالًا لمكانه.

١ – الحديث دليل على فضل من أحبه الله، وأن من أحبه الله أحب أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض.

وقع في بعض طرق الحديث بيان سبب هذه المحبة، والمراد بها :

ففي حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال (إن العبد ليلتمس مرضاة الله، ولا يزال بذلك، فيقول الله عزَّ وجلَّ لجبريل: إن فلانًا عبدي يلتمس أن يرضيني، ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش، ويقولها مَن حولهم، حتى يقولها أهل السماوات السبع، ثم تَهبِط له إلى الأرض) رواه أحمد.

ويشهد له حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاريّ (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل، حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه).

قال القرطبي : قوله (يوضع له القبول في الأرض) يعني: بالقبول محبة قلوب أهل الذين والخير له، والرضا به، والسرور بلقائه، واستطابة ذِكره في حال غَيبته، كما أجرى الله تعالى عادته بذلك في حق الصالحين من سلف هذه الأئمة، ومشاهير الأئمة، والقول في البغض على النقيض من القول في الحب.

وقال ابن بطال : قوله (ثم يوضع له القبول في الأرض) يريد المحبة في الناس، وقال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: (وألقيت عليك محبة مني) أي: حببتك إلى عبادي، وقال ابن عباس في قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًا) قال: يحببهم ويحببهم إلى الناس. (ابن بطال).

٢ – الحديث دليل على أن من علامات محبة الله: أن يوضع للعبد القبول في الأرض.

٣ – أن إعلام الله تعالى جبريل عليه السلام، وإعلام جبريل الملائكة عليهم السَّلام بمحبة العبد المذكور تنويه به، وتشريف له في ذلك الملأ الكريم، وليحصل من المنزلة المنيفة على الحظ للعبد العظيم، وهذا من نحو قوله ﷺ حكاية عن الله تعالى حيث قال: "أنا مع عبدي إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم.

٤ – بيان أن محبة قلوب الناس علامة محبة الله تعالى، ويؤيده ما تقدّم في "الجنائز (أنتم شهداء الله في الأرض).

قال الربيع بن أنس: إذا أحب الله عزَّ وجلَّ عبدًا ألقى له مودّة في قلوب أهل السماء، ثم ألقى مودة في قلوب أهل الأرض.

وقال كعب الأحبار: والله ما استقرّ لعبد ثناء في أهل الأرض حتى يستقرّ ثناء في أهل السماء.

٥ – جبريل مقدّم الملائكة.

٦ – من أحبه الله أحبه أهل السماء والأرض.

٣٨٨ – وعن عائشة رضي الله عنها (أنَّ رَسُول الله ﷺ بعثَ رجلًا عَلَى سَريَّةٍ، فَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ فَيَخْتِمُ بـ {قُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ}، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذلِكَ لرسول الله ﷺ فَقَالَ: «سَلُوهُ، لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

==========

(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً) لا يعرف اسمه، قال ابن حجر: وأما من فسره بأنه قتادة بن النعمان فأبعد جداً، فإن في قصة قتادة أنه كان يقرؤها في الليل يرددها، ليس فيه أنه أمّ بها، لا في سفر ولا في حضر، ولا أنه سئل عن ذلك، ولا بُشّر.

(عَلَى سَرِيَّةٍ) السرية: الطائفة التي يبعثها الإمام من الجيش يبلغ أقصاها ٤٠، سمو بذلك: قيل: لكونهم خلاصة العسكر وخياره، مأخوذ من التسري وهو النفيس. وقيل: لأنهم يبعثون سرّاً وخفية.

(وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ) أي: حين يصلي بهم إماماً.

(فَلَمَّا رَجَعُوا) من غزوهم.

(ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ) أي: ما يفعله أميرهم من ختم قراءته بهذه السورة.

(فَقَالَ لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ) أي: إنما أفعل ذلك لأنها صفة الرحمن عز وجل.

قال في "الفتح": قال ابن التين: إنما قال: إنها صفة الرحمن، لأن فيها أسماءه وصفاته، وأسماؤه مشتقة من صفاته، وقال غيره: يحتمل أن يكون الصحابي المذكور، قال ذلك مستندًا لشيء سمعه من النبي ﷺ، إما بطريق النصوصية، وإما بطريق الاستنباط.

وقد أخرج البيهقي في "كتاب الأسماء والصفات" بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: صف لنا ربك الذي تعبده، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) إلى آخرها، فقال: هذه صفة ربي عز وجل.

وعن أبي بن كعب ﷺ، قال: قال المشركون للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت "سورة الإخلاص" ... الحديث.

وهو عند ابن خزيمة في "كتاب التوحيد"، وصححه الحاكم. وفيه: أنه ليس شيء يولد إلا يموت، وليس شيء يموت إلا يورث، والله لا يموت، ولا يورث، ولم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثله شيء.

وقال ابن دقيق العيد رحمه الله: قوله (لأنها صفة الرحمن) يحتمل أن يكون مراده أن فيها ذكر صفة الرحمن، كما لو ذكر وصف، فعبر عن الذكر بأنه الوصف، وإن لم يكن نفس الوصف. ويحتمل غير ذلك، إلا أنه لا يختص ذلك بهذه السورة، لكن لعل تخصيصها بذلك لأنه ليس فيها إلا صفات الله سبحانه وتعالى، فاختصت بذلك دون غيرها.

(فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا) أي: أقرأ هذه السورة التي هي صفة الرحمن عز وجل.

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّه) قال ابن دقيق العيد رحمه الله: يحتمل أن يكون سبب محبة الله له محبته لهذه السورة، ويحتمل: أن يكون لما دل عليه كلامه؛ لأن محبته لذكر صفات الرب دالة على صحة اعتقاده.

١ – اختلف في معنى قوله: (فيختم بـ: قل هو الله أحد) على معنيين:

المعنى الأول: أنه يختم قراءة كل ركعة.

المعنى الثاني: أنه يختم قراءة الصلاة عموماً.

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: هذا يدلّ على أنه كان يقرأ بغيرها، ثم يقرؤها في كل ركعة، وهذا هو الظاهر.

ويحتمل أن يكون المراد أنه يختم بها آخر قراءته، فيختص بالركعة الأخيرة، وعلى الأول فيؤخذ منه جواز الجمع بين سورتين في ركعة. (إحكام الأحكام).

فعلى الاحتمال الأول إذا كانت الصلاة رباعية، فإنه يقرأ قل هو الله أحد أربع مرات، وعلى الاحتمال الثاني يقرؤها مرة واحدة فعلى القول الأول: الحديث دليل على جواز جمع سورتين فأكثر في الركعة الواحدة.

ومما يدل لذلك أيضاً:

أ– حديث حذيفة قَالَ (صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ. ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّى بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ) رواه مسلم.

ب– وحديث أَنَس ﷺ قال (كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ – (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ لاَ تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ مَا أَنَا بِتَارِكِهَا إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ يَا فُلاَنُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّهَا فَقَالَ حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ) رواه البخاري.

وما جاز في النفل جاز في الفرض إلا بدليل يخصص.

وقد ثبت عن النبي ﷺ قراءة سورتين بعد الفاتحة في كثير من الصلوات، وسميت هذه السور بـ (النظائر) وقد جاء في الأحاديث الصحيحة ذِكرها وبيانها.

عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأتُ المفصَّل الليلة في ركعة، فقال: هَذًّا كهذِّ الشعر؟ لقد عرفت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصَّل سورتين في كل ركعة. متفق عليه.

وبوَّب عليه البخاري بقوله: باب الجمع بين السورتين في الركعة. **والهذّ**: سرعة القراءة.

وعن علقمة والأسود قالا: أتى ابنَ مسعود رجلٌ فقال: إني أقرأ المفصل في ركعة، فقال: أهذّاً كهذ الشعر ونثراً كنثر الدقل؟ لكن النبي ﷺ كان يقرأ النظائر السورتين في ركعة: النجم والرحمن في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، وإذا وقعت ونون في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة، والمدثر والمزمل في ركعة، وهل أتى ولا أقسم بيوم القيامة في ركعة، وعم يتساءلون والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة. رواه أبو داود.

والدقل: رديء التمر.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ويجوز للإنسان أن يقرأ بعد الفاتحة سورتين، أو ثلاثاً، وله أن يقتصر على سورة واحدة، أو يقسم السورة إلى نصفين، وكل ذلك جائز لعموم قوله تعالى (فاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآن) ولقول النبي ﷺ (ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن).

وهذا الحديث: يدل على جواز هذا الفعل، وأما الاستحباب فلا يستحب، لأن النبي ﷺ لم يفعله، ولم يداوم عليه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ .

٢ – الحديث دليل على فضل سورة الإخلاص؛ حيث كان محبتها موجبًا لمحبة الله سبحانه وتعالى التي هي أمنية كل قاصد، ورغبة كل راغب. فمن فضائلها:

أنَّها صفة الرحمن.

كما في حديث الباب.

ومنها: أن حبها يوجب محبة الله.

لحديث الباب.

ومنه قول ابن مسعود: "من كان يحبُّ القرآن فهو يحبُّ الله.

ومنها: أن حبها يوجب دخول الجنة.

لحديث أنس السابق (... فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّهَا فَقَالَ حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّة) رواه البخاري

وخرّجه الترمذي: عن أنس (أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحبّ هذه السورة: "قل هو الله أحد" فَقَالَ: إِنَّ حبك إياها أدخلك الجنة).

ومنها: أنها تعدل ثلث القرآن.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ». فَقَرَأَ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ) حَتَّى خَتَمَهَا) رواه مسلم.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (أَنَّ رَجُلاً سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآن) رواه البخاري.

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ». قَالُوا وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ قَالَ «(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) يَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآن) رواه مسلم.

ومنها: أن الدعاء بها مستجاب.

عن بريدة. (أن النبي ﷺ سمع رجلاً يصلي يدعو يقول: اللهم إني أسالك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الَّذِي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، قال: والذي نفسي بيده، لقد سأله باسمه الأعظم، الَّذِي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب) رواه أبو داود.

٣-واختلف في معنى (تعدل ثلث القرآن) .

قال العلماء: لأن القرآن ثلاثة: توحيد، وقصص، وأحكام، وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده.

وهذا اختيار ابن تيمية.

قال رحمه الله: الْأَحَادِيثُ الْمَأْثُورَةُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي فَضْلِ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَأَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ مِنْ أَصَحِّ الْأَحَادِيثِ وَأَشْهَرِهَا حَتَّى قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْحُفَّاظِ كالدارقطني: لَمْ يَصِحَّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي فَضْلِ سُورَةٍ مِنْ الْقُرْآنِ أَكْثَرُ مِمَّا صَحَّ عَنْهُ فِي فَضْلِ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ... وَأَمَّا تَوْجِيهُ ذَلِكَ: فَقَدْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: إنَّ الْقُرْآنَ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ: ثُلُثٌ تَوْحِيدٌ وَثُلُثٌ قَصَصٌ وَثُلُثٌ أَمْرٌ وَنَهْيٌ. و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَنَسَبُهُ وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

٤- قوله: (تعدل ثلث القرآن) أي من قرأها فله أجر من قرأ ثلث القرآن، وليس معناه أنها تغني عن قراءة القرآن.

فقراءة (قل هو الله أحد) لها جزاء قراءة ثلث القرآن، لا أنها تجزئ عن قراءة ثلث القرآن.

فمن نذر - مثلاً - أن يقرأ ثلث القرآن، فلا يجزئه قراءة (قل هو الله أحد) لأنها تعدل ثلث القرآن في الجزاء والثواب لا في الإجزاء والإغناء عن قراءة ثلث القرآن.

٥ - الحديث دليل على أنه يجوز الإخلال بترتيب السُّور في المصحف حال القراءة في الصلاة وفي خارجها، حيث إن من يقرأ ويختم بـ " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " سوف يُخلّ بالترتيب، سواء في الركعة نفسها أو في الركعة التي تليها .

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة (التنكيس في سور القرآن كأن يقرأ في الركعة الأولى: الناس، وفي الثانية: الإخلاص) على أقوال:

القول الأول: يجوز بلا كراهة.

وبه قال الشافعي، واختار هذا القول الموفق، وابن تيمية، وابن باز.

لحديث حذيفة ﷺ قال (صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً، قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه).

حيث قرأ النبي ﷺ البقرة ثم النساء ثم آل عمران.

القول الثاني: يكره.

وبه قال مالك، وأحمد، ورجحه الشيخ ابن عثيمين.

لأن ذلك خلاف ترتيب المصحف الذي وضعوه الصحابة.

ورجح هذا القول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، وقال عن حديث حذيفة: لعله قبل العرضة الأخيرة.

القول الثالث: يكره التنكيس في صلاة الفرض ولا يكره في صلاة النفل.

والراجح - والله أعلم - القول الأول.

٦ – الحديث دليل على إثبات الصفات لله تعالى.

٧ – الحديث دليل على صفة المحبة لله تعالى، إثباتاً يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

٨ – تَضَمُّن هذه السورة لصفات الله عز وجل.

٩ – وفي الحديث دليل لأهل السنة على إثبات صفات الله عز وجل، وأنه مذهب الصحابة ﷺ، وقد أقرّهم النبي ﷺ على ذلك.

٩ – فيه الاستفصال قبل الإنكار فيما يسوغ فيه الخلاف " سَلُوهُ لأَيِّ شَيْءٍ يَصنَع ذَلِكَ؟ " وهذا في المسائل التي يسوغ فيها الخلاف، وليس في إنكار المنكر.

فائدة:

القصة في هذا الحديث – حديث الباب – غير القصة التي جاءت في حديث أنس عند البخاري.

عن أَنَس ﷺ قال (كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ...) .

قال ابن حجر: وعلى هذا فالذي كان يؤم في مسجد قباء غير أمير السرية ويدل على تغايرهما:

أن في رواية الباب (حديث أنس) أنه كان يبدأ بقل هو الله أحد وأمير السرية كان يختم بها.

وفي هذا أنه كان يصنع ذلك في كل ركعة ولم يصرح بذلك في قصة الآخر.

وفي هذا أن النبي ﷺ سأله، وأمير السرية أمر أصحابه أن يسألوه.

وفي هذا إنه قال إنه يحبها فبشره بالجنة، وأمير السرية قال إنها صفة الرحمن فبشره بان الله.

والله أعلم ؛؛؛